

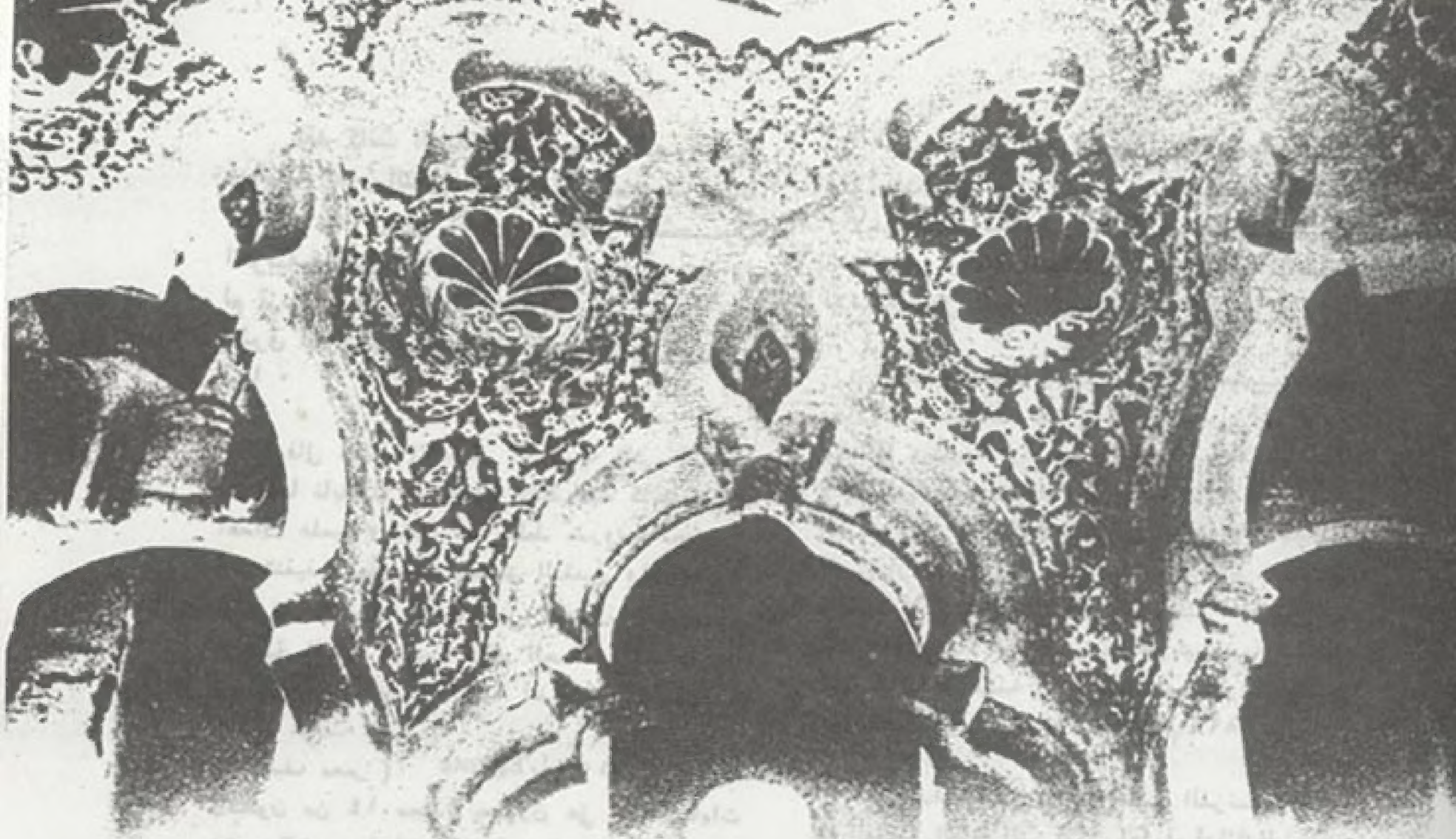
المادة

فنون إسلامية

استاذ العمارة - جامعة الرياض
كلية الهندسة - جامعة الرياض

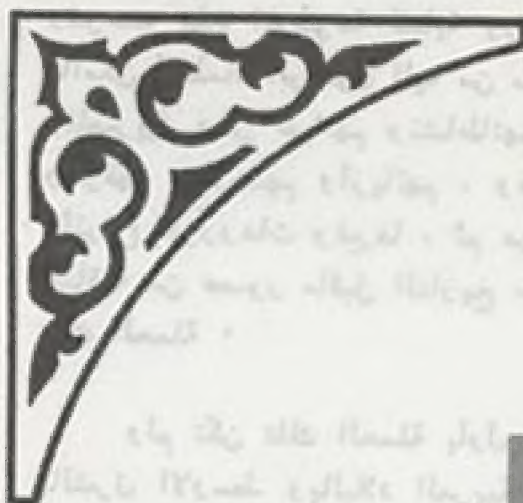
دراسات أسس وتطورات

العمارة في الإسلام



تاریخ اسلام و اسلامیات
تاریخ اسلام و اسلامیات
تاریخ اسلام و اسلامیات

تاریخ اسلام و اسلامیات
تاریخ اسلام و اسلامیات
تاریخ اسلام و اسلامیات



تاریخ اسلام و اسلامیات
تاریخ اسلام و اسلامیات
تاریخ اسلام و اسلامیات

عالم الاسلام

تاریخ اسلام و اسلامیات

تاریخ اسلام و اسلامیات



لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر والشام في نهاية القرن الثامن عشر وأول التاسع عشر حدثا ذا آثار بالغة بعيدة المدى على حضارة الشعوب العربية والاقطار الاسلامية ، فهي لا تقل في ذلك ان لم تزد على آثار حملة الاسكندر المقدوني على الشرق الاوسط من قبل ذلك بنحو اثنين وعشرين قرنا .

فالى جانب الاهداف السياسية التي كان يتوخاها نابليون من حملته تلك فقد كانت هناك اهداف علمية وضعت لها خطط مدروسة محددة ، وتم تنفيذها على وجه يستحق التقدير والاعجاب ، اذ تبلورت جهود العلماء على اختلاف درجاتهم العلمية الذين صاحبوا تلك الحملة وأسفرت عن أبحاث علمية عظيمة القيمة أخرجت في موسوعة رائعة عرفت باسم :

(وصف مصر) Description de L'Égypte وتتكون من ١٤ مجلدا يحتوون على احصاءات وتسجيلات ودراسات مكتوبة ، ثم نحو ثمانية أطناس ضخمة تضم رسومات في غاية الدقة والاتقان وشرحت هذه الموسوعة كتابة ورسا وصف كل ما أمكن للعلماء الوصول اليه من معلومات عن مصر والمصريين وعن حياتهم ونشاطاتهم وعن زراعاتهم وحرفهم وملابسهم وأزيائهم ، وعن الحيوانات وأنواع المزروعات وغيرها ، ثم عن فنونهم والآثار الباقية من عصور ما قبل التاريخ حتى وقت وصول تلك الحملة .

ولم تكن تلك الحملة بأول احتكاك الاوربيين بالشرق الاوسط وبالبلاد العربية والاسلامية فقد سبقتها كما هو معروف العديد من حملات الصليبيين الذين حاولوا جردهم الاستيلاء على بلاد العرب والمسلمين أو على الاقل على أجزاء منها ، ولم يكفوا عن ذلك الا منذ أن عصفت حملات المغول بالشرق الاوسط والتي صدها المصريون في الشام وجعلوا المغول يقنعون باحتلال فارس والعراق ، ويتخذون من بغداد قاعدة لحكم القطرين .

غير أن الحملات الصليبية قد ظلت مستمرة وما زالت حتى وقتنا الحاضر ، وتظهر بين العين والآخر وتتخذ مظاهر وأشكالا مختلفة لايسهل اخفاؤها ، وظلت الخطط توضع وتدبر المؤامرات للاستيلاء على البلاد العربية والاسلامية .

ومن الاشكال المستترة لتلك الحملات محاولات استكشاف تلك البلاد وتسجيل أحوالها ، ومعالها وطبيعة أراضيها الجغرافية والمناخية ، واقتصادياتها وعادات أهلها وشعوبها ومعتقداتها الى غير ذلك . . . وكان منهم من نجح في التسلل الى أقدس أراضي العرب والمسلمين ودخل الحرم النبوي والحرم المكي مثل وستنفلد الذي نشر مؤلفه عن مكة (١) في عام ١٨٥٨ وتبعه هير جرونبيه فنشر عنها كتابه وأطلسه (٢) وجاء بعدهم جرفيه كورتلمون فنشر عنها مؤلفه في عام ١٨٩٦ م

ولا يداخلنا شك في أن الحملة الفرنسية كانت من العوامل الهامة التي أذكت اهتمام أولئك الباحثين ومن سبقهم الى نشر المؤلفات عن مصر والشام وبخاصة في ميادين العمارة والفنون ، نذكر منهم بعض الفرنسيين مثل بريس دافن الذي نشر كتابه



رواق القبلة بجامع عمرو بالفسطاط

الكبير (٤) في عام ١٨٨٧ م ، وسبقه كتاب أو اطلس المعماري باسكال كوست (٥) في عام ١٨٣٩ م ، كما ظهرت مؤلفات العالم بوجوان (٦) في حوالي عام ١٨٧٣ م .

وأخطر كتاب عن مصر وضعه كاتب وفنان انجليزي هو ادوارد وليم لين (٧) في أعوام ١٨٣٣ ، حتى ١٨٣٥ م ، وعنوانه (عادات وتقاليد المصريين المحدثين) ونشر في عام ١٨٦٠ م . وقد تغفل فيه كاتبه الى أعماق المجتمع المصري في ذلك الوقت وسجل فيه أدق ما يمكن الوصول اليه من معلومات ، حتى أنه سجل كلمات البائعين الجائلين ونغمات نداءاتهم بالنوتة الموسيقية . ولم ينس تسجيل الكثير عن الفنون والحرف مما يضيق المقام عن ذكره . وفي اعتقادنا أن الانجليز قد انتفعوا كثيرا بالمعلومات التي فيه عند اقدمهم على احتلال مصر سياسيا أولا ثم عسكريا بعد ذلك .

وأخذت تزداد سرعة عجلة نشر مؤلفات الباحثين عن المنطقة العربية والاسلامية منذ أواخر القرن الماضي وأوائل الحالي ، وكان منهم العالمان برونو و دومازفكي (٨) اللذان وضعنا كتابا عن

منطقة الاردن والبتراء ونشر في عام ١٩٠٩ م . وكذلك مؤلف العالمين جاوسن وسافينياك (٩) الذي شمل منطقة شمال شبه الجزيرة ومنطقة العلى ومدائن صالح ، ونشر العالمان فانتزنجر وفولتزنجر (١٠) مجلدا عن دمشق قبل الاسلام في سنة ١٩٢١ وآخر عنها بعد الاسلام في عام ١٩٢٤ م .

ومنهم الباحث الواز موزل الذي أعد مجلدين عن أحد القصور الصغيرة (١١) في الصحراء قرب عمان اسمه قصير عمره ، وكان ذلك في سنة ١٨٩٣ م ومنهم أيضا الباحثة جرتروود بل Gertrude Bell ولها كتاب نشر في سنة ١٩١٤ م (١٢) عن منطقة الشرق الاوسط العربية ، وغيرهم كثيرون .

وقبيل الحرب العالمية الاولى اهتم بعض العلماء الالمان بمنطقة العراق ، وقام العالمان زاره وهرتزفلد باعداد مسح أثري قيم لبلاد الرافدين نشره في أربعة مجلدات تحت اسم (رحلة أثرية في منطقة الدجلة والفرات) (١٣) . ثم قاما بعفائر في منطقة مدينة سامرا التي تقع الى الشمال من مدينة بغداد وعلى بعد نحو ١٠٠ كم (١٤) .

ولايتسع المقام لذكر المزيد عن المؤلفات العديدة التي وضعت عن البلاد العربية في الشرق الاوسط وظهرت قبل الحرب العالمية الاولى التي كان من ميادينها تلك المنطقة ، وليس هناك من شك في أن أبحاث أولئك العلماء عن المنطقة قد لعبت دورا هاما في معرفة الكثير عن أحوالها وطبيعتها وطباع أهلها ، مما ساعد الحلفاء على الانتصار وهزيمة الدولة العثمانية وتقطيع أوصالها ، ثم توزيع الاقطار التي كانت خاضعة لها على الدول المتحالفة المنتصرة . وكان من أخطر نتائجها ذات المدى البعيد تقسيم الاقليم الكبير الذي كان معروفا منذ فجر التاريخ باسم الشام الى دويلات هي سوريا ولبنان والاردن وفلسطين التي تحولت الى وطن لليهود الاسرائيليين والى بقعة سرطانية على الارض العربية .

ثم زاد اشتغال الاهتمام بالدراسات والابحاث عن النواحي الحضارية للبلاد العربية الاسلامية في شرق ووسط وغرب العالم الاسلامي وما فيها من عمارة وفنون وحرف وصناعات ، وذلك لمعرفة المزيد عنها والكشف عن آثارها ، وصارت تتوالى المؤلفات عنها على هيئة مقالات وكتب واطالس ومجلدات .



تتعلق بموضوع أسس الحضارة والعمارة الإسلامية ،
وتتصل الثانية بمصادر اشتقاق وأصول تصميمات
وعناصر العمارة الإسلامية ، وهي في الحقيقة امتداد
للناحية الأولى أو هي تدعيم لها .

أما موضوع أسس الحضارة والعمارة الإسلامية
فإن الأستاذ كريستول قد وقع تحت تأثير الخلاصة
التي وصل إليها من مجموعة آراء المستشرقين
والباحثين الذين سبقوه أو عاصروه وبذلوا كل
ماوسعهم من جهود في إنكار أي فضل أو مساهمة
للعرب شبه الجزيرة العربية في قيام وبناء الحضارة
الإسلامية ثم تأكيد اتهاماتهم لهم بالتخلف والبداءة ،
وحتى يصلوا من ذلك إلى نسبة الفضل كله في ذلك
إلى جهود الأقوام من غير العرب ومن غير المسلمين في
الأقطار التي تكونت منها الدولة الإسلامية .



قلعة عربية قديمة بالقطيف

ومن المصادفات الجديرة بالذكر والمتصلة بهذه
الابحاث وبالحرب العالمية الأولى ونتائجها السياسية
والحضارية أنه كان بسلاح المهندسين البريطاني
ضابط اسمه « كينيث ارشر كريستول »
K. A. C. Creswell

سمعت منه أنه عمل مع الجيش البريطاني في أثناء
الحرب في الشرق الأوسط ، فاستهوته العمارة
الإسلامية بمنطقة الشام ومصر وبعد تقاعده برتبة
كابتن عمل بمديرية الآثار بالأردن فترة كان في
أثنائها على صلة بآثار المنطقة القديمة للشام كلها ،
ثم اتجه إلى مصر وطابت له الإقامة فيها ، وأخذ
انتاجه في ميدان دراسات العمارة الإسلامية يتتابع
وبخاصة عن مصر والشام ، إلى أن فاز بالجائزة
الأولى في مسابقة تهدف إلى معرفة التصميم الأصلي
لجامع عمرو بن العاص في القسطنطينية .

وكان من النتائج الهامة لفوزه هذا أن أوكل
إليه إنشاء معهد الآثار الإسلامية ، وذلك أسوة بمعهد
الآثار المصرية الذي سبقه بنحو أربع سنوات ، وكان
المعهدان يتبعان كلية الآداب بجامعة قواد الأولى
(القاهرة الآن) ، ورأس الأستاذ أو الكابتن
كريستول كما كان يسمى آنذاك ذلك المعهد ،
وتخرجت منه الدفعة الأولى عام ١٩٣٦ م . وتخرج
منه كاتب هذه السطور في عام ١٩٤٣ بعد حصوله
على بكالوريوس قسم العمارة من الأستاذ كريستول
من عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ حتى عام ١٩٤٢ -
١٩٤٣ م .

وتميز الأستاذ كريستول بسعة اطلاعه على
مراجع العمارة الإسلامية وبدقة تسجيله لآثارها
الباقية وبخاصة في العصور الإسلامية المبكرة . ونشر
دراساته في مقالات ومؤلفات تأتي على رأسها أربعة
مجلدات ضخمة تعد من أهم المراجع عن العمارة
الإسلامية المبكرة (١٥) في العالم الإسلامي ثم عن
العمارة الفاطمية (١٦) والأيوبية والمملوكية المبكرة
(١٧) في مصر . وهي مراجع توفر الكثير من
المعلومات يعتمد عليها الباحثون ومنهم كاتب هذه
السطور .

غير أن أسلوبه في الكتابة عن تلك المواضيع
كان يشوبه ضعف شديد في ناحيتين هامتين : أحدهما



ويزيد الطين بلة أن يؤمن كريسول بتقديرات واحصاءات كالتي أتى بها كايثاني الايطالي Caetani ويصل منها الى أن سكان بلاد العرب كان تسعة أعشارهم من البدو الرحل (٢١) ولم يتساءل كريسول كما نتساءل الآن عن الطريقة التي اتبعها كايثاني لعمل احصاء لأولئك السكان في الفترة قبل الاسلام أو بعده ، ثم كيف أمكنه معرفة أن تسعة أعشارهم من البدو ، مع أن أول احصاء للمملكة العربية السعودية ، وهي أكبر دولة في شبه الجزيرة قد تم منذ ثلاث أو أربع سنوات فقط ، وما زالت هناك نواح يرى البعض أنها تحتاج لمزيد من المراجعة .

ولا شك أن مثل تلك التقديرات الجغرافية كالتي أتى بها كايثاني أو غيره تعد من ضرور الحس والتخمين بل التضليل المفروض ، إذ لا تمت بأية صلة الى البحث العلمي السليم .

ومن أعجب ما يمكن أن يطبق على عرب ما قبل الاسلام وبعده مباشرة نظريات في علم النفس الحديث وأن يكتشف عندهم عقدة التواجد في أماكن مقفلة Contingent Claustro-Phobia وأن عرب شبه الجزيرة الذين نشروا الاسلام في تلك

واقطف كريسول طائفة من تلك الآراء ، كان منها ما قالته جرتروود بل من تأكيدها وصف الغزاة « المحمديين » بالتخلف والبداءة ، وأنهم لم يعرفوا من العمارة سوى سكن في خيمة سوداء ومثوى في قبر في رمال الصحراء ، وحتى سكان المواضع المستقرة مثل الواحات النادرة المتناثرة في أرجاء شبه الجزيرة فإنهم ما كانوا يعرفون الا نوعا قبيحا من العمارة من اللبن وجذوع النخل لا يزينه أي نقش ولا يصلح الا لأبسط الحاجات (١٨)

ومن عجب أن تتعرض تلك الكاتبة للحديث عن العمارة وهي لا تدري شيئا عن معناها ، وكأن العمارة في رأيها لا تسمى عمارة الا إذا كانت من الطوب والحجارة والرخام وتزينها النقوش ، أما البساطة وعدم التألق فهو في رأيها يعد قبيحا وتغلغا وهو رأي يتعارض تماما مع المعنى العلمي للعمارة .

ثم يأتي راهب يدعى لامانس Lammens يتفجر في كتاباته حقد متأجج على العرب والمسلمين ليقول عن أغنياء قریش أنهم ما كانوا يهتمون الا بالطعام وبسعة القدر ، أما مساكنهم فلم تعرف الترف ولم تكن لهم مهابة ولا يدرفون كلمة قصر . وكانوا يلجأون الى صناع أجانب إذا ما أرادوا ترميم الكعبة (١٩)

ومن الواضح أن لامانس هذا يكشف في كتابته عن تعامله وعدم حيده وبخاصة فيما يتعلق بخبر اشتراك صانع رومي ، ولعله كان من الشام ، إذ بنى على هذا الخبر حكما عاما على جميع العصور السابقة ، ثم اللاحقة بطبيعة الحال بالعصر الاسلامي وهو حكم أخرق بخير شك .

ومن المؤسف أن يؤمن كريسول بهذه الآراء وغيرها مثل رأي ريتشموند Richmond وهو أن مدى الامكانيات المعمارية الاسلامية قبل قيام العرب بفتوحاتهم كانت لا تكاد تكفي الا لتعبر عن حاجاتهم بطريقة غشيمة الى الدرجة القصوى (٢٠)

ويبدو أن هذا المهندس المعماري الذي كان مفروضا أن يتحدث عن العمارة ويستند الى براهين وتحليلات معمارية سليمة قد سار على النهج الذي سارت عليه جرتروود بل التي لا تدري شيئا عن حقيقة العمارة .



أما كراهية الرسول عليه السلام للعمارة بصفة مطلقة فإنها أمر لا يتفق بتاتا مع البناء الذي قام به هو وصحابته للدار التي أعدها لتأوي أهله والتي تحولت بعد فترة قصيرة إلى مسجد كان ثاني مساجد العالم بعد مسجد قباء ولا تمنع بساطة تصميمه وبنائه وتفصيله من أن يعد أول بناء في العمارة الإسلامية بالمعنى المتفق عليه بين الممارين في جميع العصور .

واعتمد كريسول (٢٢) في موضوع كراهية الرسول للعمارة على حديث روي عنه اذ قال : (ان شر ماذهب فيه مال المسلمين البنيان) ، قاله لأم سلمة عندما رآها قد أضافت إلى حجرتها جدارا من اللبن ، وهو أرخص مواد البناء ، ولكنها أوضحت لرسول الله أنها هدفت من ذلك أن تكف أبصار الناس . ولو توفرت الحيدة والانصاف في فحص المعنى الحقيقي لهذا الحديث واستعرضنا الظروف التي قيل فيها ذلك الحديث لتبين أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم ينه عن البناء أو يظهر كراهية له ، وإنما يتضمن التنبيه على عدم الاسراف فيه ، وهو أمر طبيعى مطلوب في المراحل الأولى في الدعوة الإسلامية التي كانت تتطلب تركيز كل إمكانيات المسلمين في سبيل نشر الدعوة ، وتأجيل ماعدا ذلك من نواحي النشاط الأخرى من مدنية ومعمارية ، وبخاصة مايتصف منها بالتألق أو المغالاة .

ثم كيف يعتقد كريسول بصحة تلك الكراهية في نفس الوقت الذي يورد فيه قولاً لبكر Becker (٢٣) بأن الرسول كان محباً للمعظمة هو وخلفاؤه ، بدليل أنه اتخذ المنبر عندما أصبح رجلاً مرموقاً يستقبل السفارات ، وكان أبو بكر يتلقى فروض الطاعة في احتفال كامل وهو جالس على المنبر ، ثم سار الخلفاء والولاة من بعده على نفس المنوال .

واذن فهناك تناقض واضح بين الرايين أو الروايتين يهدمهما من أسسهما .

وخلص كريسول من ذلك إلى النتيجة التي كان يهدف إليها فقال : (انه لبيد أن عرب ما قبل الاسلام لم يكن لديهم إلا آخشن الافكار عن البناء ،



مدائن صالح على بعد ٥٠٠ ميل شمال جدة

الرقعة الهائلة من العالم المعروف في ذلك الوقت كانوا لا يطبقون العيش في منازل أو عمائر من أي نوع . وهو حكم أو نظرية ترمي إلى تأكيد عدم معرفتهم بالعمارة ويجب أن يضم إلى الأحكام التي لاتقوم على حيشيات علمية سليمة .

ثم آمن كريسول بأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يكره العمارة . وعلى فرض صحة ذلك ، وهو ليس بصحيح كما سنرى فيما بعد ، فإنه دليل على معرفة العرب بالعمارة في ذلك العين ولولا وجودها لما وجدت كراهيتها . وهكذا تنهار مرة أخرى نظرية عدم وجود عمارة في بلاد العرب .



كريسول

متخصص في العمارة بأن يقع في مثل هذه الزلة .
أما من ناحية العمارة المدنية فإن الظروف
السائدة في البيئة أو البيئات لم تتغير بمجرد نزول
القرآن أو بعد الفتوح مباشرة ، وكان من الطبيعي
أن يضيف الناس إلى تقاليدهم الموروثة بعضاً من
المجتمعات الأخرى في الاقطار التي فتحوها ،
واستغرق الأمر وقتاً ليس بالقصير حتى نضج كل
ذلك وأصبح له طابعه الإسلامي العصيم ، وهو أمر
قد حدث لجميع الحضارات وطرزها المعمارية في
جميع العصور ، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر :
العمارة الرومانية ، والمسيحية ، والبيزنطية ،
والإخمينية إلى غير ذلك .

ومن أنواع الشطط الأخرى التي ارتكبها
كريسول افتراضه بأن الجيوش العربية الفاتحة
كانت تتكون من أهل مكة والمدينة ، مع أن الإسلام
قد انتشر في وقت جد قصير بين غالبية القبائل في

ولم يكن معيهم الرئيسي (يقصد الكعبة) شيئاً
أكثر من مساحة صغيرة مسورة بأربعة جدران
بارتفاع قامة رجل) . وكان حكمه هذا على
عرب ما قبل الإسلام مقدمة لحكمه على العرب
المسلمين الفاتحين فقال : « ولم يحملوا في الأيام
المبكرة إلى الاقطار التي فتحوها شيئاً معمارياً
يتجاوز حاجاتهم العقائدية » (٢٤)

ولم يدر كريسول أنه قد كبا كبوة معمارية
عظمى ، فإن حاجاتهم العقائدية البسيطة التي
حملوها معهم كانت هي جوهر العمارة الإسلامية
وتتمثل في المسجد وتصميمه الذي ينبع من تلك
الحاجات العقائدية من بساطة الدين الإسلامي ،
والذي بدأت أولى حلقاته بمسجد الرسول بالمدينة
المنورة ، وهو تصميم لم يتأثر بأي تقاليد معمارية
سابقة ولم يقتبس منها شيئاً مثلما خضع تصميم
الكنيسة لتقاليد البزيلিকা الرومانية والمعابد
الرومانية . وما كان يليق باستاذ معروف بأنه



في قالب محلي جعل لها طرازا خاصا بها لا هو
بالروماني ولا بالآشوري ولا بالفرعوني .

أما البقاع الأخرى من الجزيرة العربية ، في
وسطها وشرقيها ، فإن بها طرزا معمارية قائمة
أغلبها مشيد باللبن ، وهي وإن كانت تعود إلى
قرن أو اثنين ، فإنها بلا شك تمثل تراثا يعود إلى
أكثر من ذلك بكثير ، بل لعلها تعود إلى ألف أو
ألفين من السنين ، وذلك لبعدها عن التيارات
المعمارية وتأثيرات المدارس المعمارية الإسلامية التي
سادت مناطق مكة والمدينة وغيرهما ، وبخاصة
المدرسة العثمانية التي مازالت آثارها حية حتى
الآن في الحرم المكي والحرم النبوي في المدينة
المنورة وفي العمارات المدنية والسكنية في منطقة
العجاز .

وتهمنا آثار المناطق الوسطى والشرقية من
شبه الجزيرة لما تمتاز به من ملامح جمالية نابغة
من البيئات المحلية على الرغم من مادة اللبن التي
شيدت بها ، وهي أبلغ رد على تهمة القبح التي
وصف المفرضون بها بساطة عمارة العرب في
العصور المبكرة من العصر الإسلامي وقبله بقليل .

ومن الأدلة التي لا يرقى إليها شك في وجود
عمارة في شبه الجزيرة من قبل الإسلام ما قام به
قسم التاريخ والآثار في كلية الآداب ، جامعة
الرياض ، بإشراف الدكتور عبد الرحمن الانصاري
من حفريات تعد أول عمل علمي منظم في إحدى
مناطق الآثار ، وتم الكشف عن عمارات مطمرة تحت
سطح الأرض في (فاو) وثبت بالدليل القاطع
أن بأرض الجزيرة العربية آثارا أخرى لحضارات
طواها الزمن وطمرتها عوامل الطبيعة القاسية التي
لا ترحم ، وطالما أضاعت معالم حضارات كانت
زاهرة وانطفأت ، وحفريات الفاو تبشر بالعشور
على آثار أخرى تساعد على إثبات فساد نظرية
الفراغ المعماري في شبه الجزيرة العربية ، وأن
تهمة جهل العرب بالعمارة ما هي إلا هراء أشاعه
المستشرقون المفرضون .

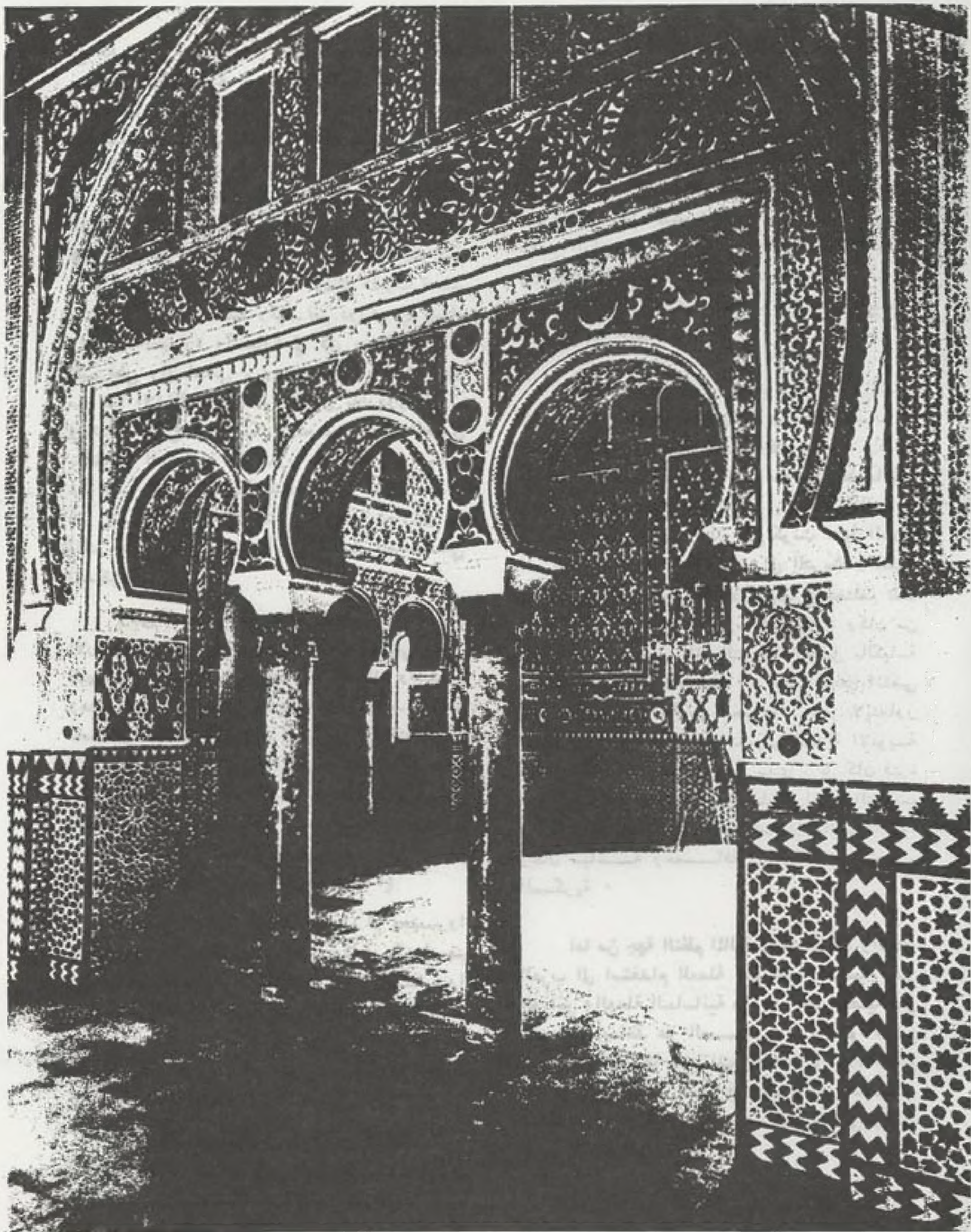
ومن أهم المآخذ على هؤلاء المستشرقين أنهم
اغفلوا تماما الوجود العربي في الشام والعراق ،

أنحاء شبه الجزيرة ، في الشرق والشمال والجنوب
واشترك الكثير من المحاربين في كل منها في الفتوح
الأولى ، وكان منها من غير شك قبائل من اليمن ذات
الحضارة والعمارة القديمة المعروفة . أما المناطق
الأخرى من شبه الجزيرة فهناك من الأدلة
التاريخية والجغرافية ما يدل دلالة قاطعة بأنها كانت
في وقت من الأوقات تجري فيها الأنهار التي تمد
جماعات الناس بحاجتهم من الماء والمزروعات وأنواع
المؤن ، وتحدث هيرودوت عن بلاد الحجاز وعن
مخيلات التجار الأغريق قرب ساحل البحر الأحمر .
وهي مخيلات ما كانت تقوم إلا إذا توفر لسكانها
مقومات الحياة ، وإلا إذا كانت على مقربة من مدن
أو قرى يسكنها أهالي مستقرين فيها ، وكان بها
بالتالي أنواع من الحضارة والعمارة .

ثم كيف ينكر كريسول وغيره وجود عمارة في
بلاد العرب عامة والحجاز بخاصة مع ما هو معروف
من وجود حصون اليهود من بني النضير وبني قريظة
وبني قينقاع ، كما كان لحسان بن ثابت شاعر
الرسول المخضرم حصن . وكل ذلك قليل وصلنا
وغيره كثير لم يصلنا ، وهي أدلة لا تقبل الشك على
أنه كان بتلك البقاع طراز معماري ليس يهوديا
بطبيعة الحال ، فلم يكن لليهود في وقت من الأوقات
طرز خاص بهم بل كانوا يسرون على الثقاليين
السائدة في البيئة التي يعيشون فيها .

ويعزز ذلك أدلة مادية قاطعة تتمثل في
الآثار المنحوتة في الصخر في منطقة تبوك وما في
شمالها حتى البتراء في جنوب الأردن حاليا ومنطقة
الشام قبل تقسيم المستعمرين لها . وهي طراز من
العمارة تابع من البيئة العربية في تلك المناطق ،
وقيل عنه أنه طراز روماني مع أنه لا يمت إليه
بصلة سوى تفاصيل الطنف والأعمدة وبعض
الزخارف فحسب .

أما التكوين الذي يجمعها مع غيرها من
التفاصيل والعناصر فإنه يتميز بطابع محلي بعيد
عن الطابع الروماني العام . ويتضح هذا بجملة
في آثار مدائن صالح (٢٥) التي اجتمعت فيها عدة
عناصر وتفاصيل وزخارف من عدة طرز معمارية منها
الفرعوني والآشوري والهليينستي ، وصيغت كلها



من روائع العمارة الإسلامية في الأندلس

دراهم ساسانية كانت تجلب من سوريا والعراق ،
بواسطة التجارة الرابعة للقوافل)

ولو كان كريسول منصفاً في أحكامه منطقياً
في تحليله وتناوله للموضوعات الحضارية لتبين أنه
لم يحدث في التاريخ أن فتح قوم قطراً أو أقطاراً
وغيروا من نظم الحكم فيها بين يوم وليلة ، بل
خضع الفاتحون في كثير من الأحيان لنظم الحكم
والثقاليات الحضارية والمعتقدات التي كانت سائدة
في البلاد المفتوحة مثلما حدث للأخمينيين عندما
استولوا على العراق .

وكانت تلك النظم مستقرة في البلاد التي
كانت تابعة للدولة البيزنطية والدولة الساسانية
لفترة لاتقل عن ثلاثة قرون وقد تزيد ، وكانت
الدولة الإسلامية العربية قد استكملت فتوحاتها
وتكاملت وحدتها في عهد الوليد بن عبد الملك ومن
ناحية أخرى فإن تعدد الاقطار التي تكونت منها الدولة
العربية الإسلامية لاشك يدعو الى التريث والتامل
في تعديل النظم الحكومية ودواوينها في مختلف تلك
الاقطار ذات اللغات والمشارب المتباينة ، وكان من
الانصاف أن يوصف ذلك التريث والتامل بالكياسة
وحسن السياسة ، ولا شك أن الوقت الذي انقضى
حتى تم تعريب دواوين الحكومة ، وهو لا يتجاوز
نصف قرن على الأكثر بين تأسيس الدولة الأموية
واتمام ذلك التعريب لم يضع سدى ، بل كان فترة
ترقب ودراسة ووضع أسس سليمة لذلك التعريب
، وكل ذلك يشهد للعرب والمسلمين بأنهم كانوا
رجال سياسة وحصافة الى جانب قدراتهم
العسكرية .

أما من جهة النظم المالية وسك النقود والتجاء
العرب الى استخدام العملة البيزنطية الذهبية من
الدنانير والعملة الساسانية من الدراهم الفضية فإن
ذلك ليس بماخذ على العرب ، إذ أن الوقائع
التاريخية المعروفة عن تلك العملات في بلاد العالم
كله في ذلك الوقت تفسر في وضوح تام أسباب
استخدام العرب لها ، بما يفند التهمة التي وجهها
اليهم المستشرقون .

فمن الأمور الثابتة تاريخياً أن الدولة
البيزنطية كانت أقوى دول العالم في الوقت الذي

مع أنهم سلموا بأن الروم ، أي البيزنطيين ، كانوا
يستعينون بالفسانة العرب على الذود عن حدود
ممتلكاتهم ضد الساسانيين ، كما كانت الدولة
الساسانية تعتمد على المناذرة لاداء نفس المهمة
ضد الروم ، ولم يدخل المستشرقون في حسابهم
أن الفساسة والمناذرة كانوا يمثلون أكبر وأقوى
القبائل والجياليت العربية في تلك المناطق ، وأنه
كان هناك غيرهم من القبائل العربية ، كذلك لم
يدخلوا في اعتبارهم أن يكون أولئك العرب قد
اشتركوا اشتراكاً فعلياً وكان لهم دورهم في بناء
وتطوير الحضارة والعمارة في كل من المصريين
البيزنطيين والساسانيين ، وهدف أولئك المستشرقين
من هذا الاغفال أن يقتنوا الناس بأن دور العرب
في تلك البقاع كان عسكرياً فحسب ، وأن الجهل
بالتقاليد الحضارية والمعمارية قد امتد من عرب
شبه الجزيرة الى المناطق المتحضرة في شمالها ، وهو
أمر يثبت سوء نية المستشرقين وأنهم تجاوزوا في
ذلك حدود المنطق وأسس البحث العلمي
المستقيمة .

ولعل احساس كريسول بضعف ثقته بقوة
الارام التي آمن بها وبضعف الخلاصة التي وصل
اليها من اتهام عرب شبه الجزيرة بالتخلف والبداءة
وعدم الدراية بالعمارة قد دفعه الى التورط واقحام
نفسه في مناقشة الظروف السياسية والاقتصادية
التي صاحبت قيام الدولة الإسلامية في البلاد
المفتوحة وليثبت تخلف العرب في تلك النواحي
الحضارية ليصل من ذلك الى تدعيم رأيه ورأي
غيره فيما يتصل بالعمارة ، ونورد فيما يلي ترجمة
حرفية لأهم ماكتبه في هذا الموضوع (٢٦)

(نظام الحكم : لما كان العرب لم يحضروا
مهم جهازاً ادارياً من بلاد العرب ولما لم يكن لديهم
شيء يشبهه فانهم لم يملكوا سوى أن يسـمـروا
باستخدام النظم الادارية التي وجدوها في الشام
وفارس وهكذا نتج عن ذلك أن بقي موظفو
الدواوين في سوريا من السوريين وفي العراق
وفارس من الفرس)

واستطرد كريسول للحديث عن السكة فقال :
(نظام العملة : لم يكن لدى العرب قبل الاسلام وفي
اثناء حياة مؤسسه سكة خاصة بهم ، وكانت جميع
النقود المتداولة في بلادهم اما دنانير بيزنطية أو

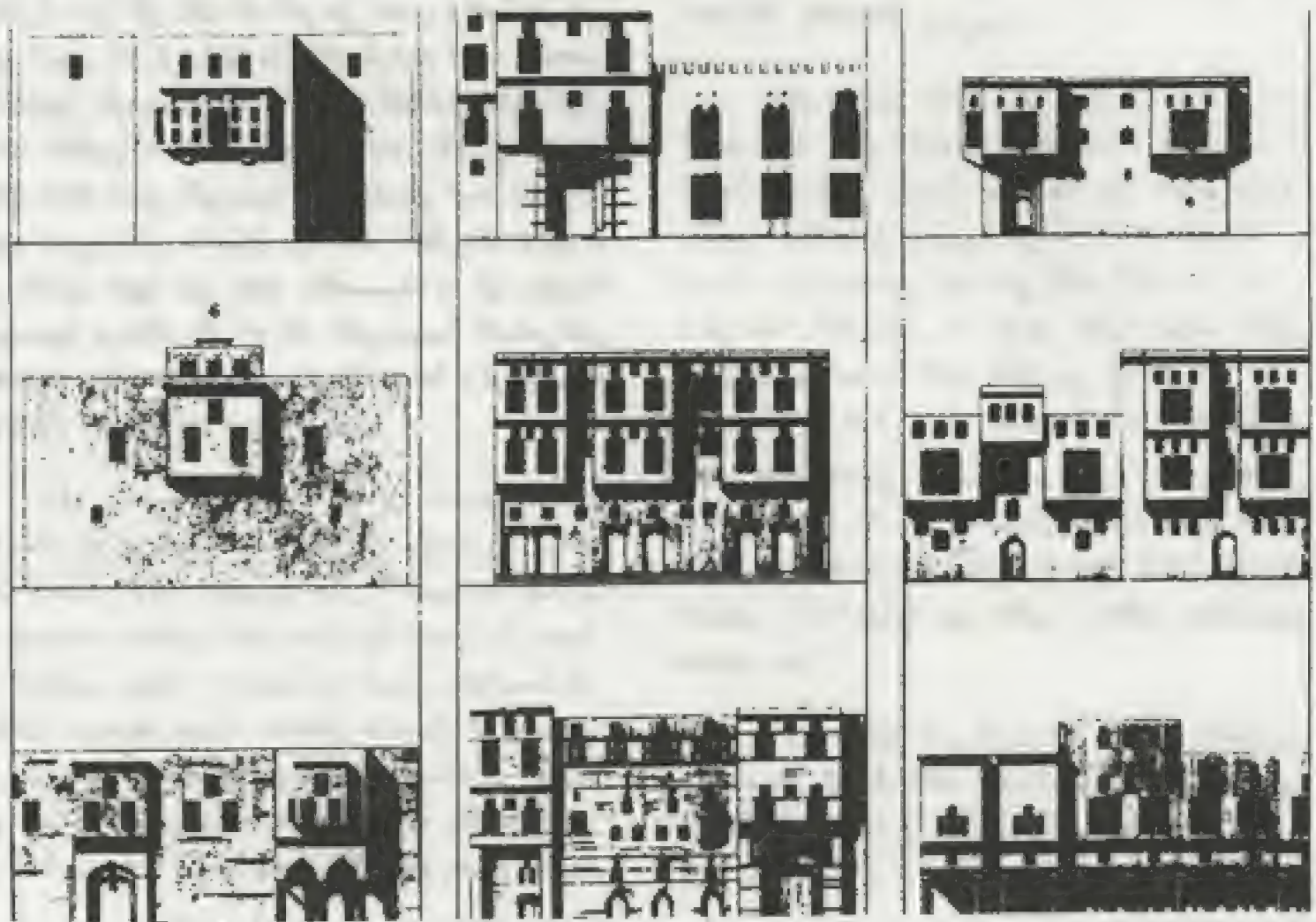
الدنانير الجارية في التعامل (٢٩)

كذلك لم يقتصر نفوذ البيزنطيين على الساسانيين فحسب بل ان اباطرة الدولة البيزنطية لم يسمحوا لاحد غيرهم ان يضرب بسكة ذهبية على اي طراز سوى طرازهم . بل ان جستنيان الاول ملك بيزنطة قد استنكر ما فعله ملك الفرنجة حين ضرب سكة ذهبية باسمه وصورته ، وهو امر ما كان يجرو عليه ملك الساسانيين الذي كان له حرية مطلقة في ضرب السكة الفضية ، ولم يكن يقدر على ان يضرب سكة ذهبية تحمل صورته ، فهذا الحق محرم عليه كما كان محرم على جميع السلاطين وحتى اذا ضرب ، أي الملك الساساني مثل هذه السكة فلن تتقبلها منه الشعوب التي يتعامل معها بالتجارة حتى ولو كانوا من رعاياه ، او غرباء عن الامبراطورية البيزنطية (٣٠)

تلك كانت الحالة الدولية للتعامل النقدي في العالم في أواخر العصر الجاهلي المتأخر وفي صدر الاسلام ، ولم يكن أمام العرب والحالة هذه مناص مثل غيرهم من دول العالم المعروف في ذلك الوقت من التعامل بتلك العملات في صفقاتهم التجارية

عاصر ظهور الاسلام ، وكان لها نفوذ اقتصادي وسياسي كبير ، كما كانت ذات ثراء عظيم بسبب ما كانت تملكه من مستعمرات كثيرة تستغل خيراتها وتمتص جهود ابنائها ، كذلك كانت صاحبة أكبر اسطول بحري في العالم ، تجاري كان أم حربي ، ولديها أغنى مناجم الذهب في ذلك الوقت .

وبسبب هذا الحول والعلو كانت الدولة البيزنطية تفرض على بلاد العالم دنانيرها الذهبية التي كانت أشبه بعملة دولية امتد التعامل بها الى بلاد المحيطات الشرقية ، مثل جزيرة سيلان وغيرها وكانت تلك العملة تتمثل في (السوليدوس) (Solidus) و (النومزما) (Nomisma) وكل منهما كان يعادل ديناراً من الذهب (٢٧) ، وبلغ من سطوة بيزنطة أن الساسانيين عندما كانوا يستعملون الفضة لدراهمهم فانهم كانوا في نفس الوقت يعتمدون على الدنانير الذهبية البيزنطية في التعامل أيضا ، وذلك نظرا لافتقارهم الى الذهب (٢٨) بل وصل الامر الى أن تملي الدولة البيزنطية على الساسانيين في معاهدة عقدوها بينهم بأن يضرب الساسانيون نقوداً من الفضة فحسب ، وأن لايتخذوا سكة ذهبية سوى السكة البيزنطية من



ومعاملاتهم داخل الدولة الإسلامية في الشام والعراق ومصر وفارس وإقليم شمال أفريقيا ومع بيزنطة نفسها ، فهم لم يكونوا بأقوى من سائر الدول التي كانت تتعامل بها ، هذا فضلا عن أن جميع البلاد التي تكونت منها الدولة الإسلامية كانت تتعامل بتلك الأنواع من السكة منذ قرون عديدة ، ولم يكن من الممكن ولا من الحكمة تغييرها إلا في خطوات تدريجية لا تؤثر على الشؤون الاقتصادية للدولة من حيث جباية الجزية والخراج إلى غير ذلك من موارد الدولة والأفراد .

ولا شك أن المسؤولين عن أمور الدولة الإسلامية الناشئة لو كانوا أسرعوا في تعريب تلك النظم في ذلك العالم الكبير الذي تكونت منه الدولة لحدثت السرعة هزات ومشاكل لا يعرف مداها ، وكل ذلك قد دعا العرب المسلمين إلى التمهّل والناة مما يستحقون عليه كل تقدير ، لا أن ينسب إليهم التخلف والعجز .

وهكذا نتيبن معا سبق من تحليل لأراء ونظريات المستشرقين الذين كاثوا للعرب تهيم التخلف والعجز جزاها وأصدروا عليهم أحكاما جائرة ، أن كل ذلك قد قام على أسس واهية بل على غير أسس بالرة وانها ما تكاد توضع تحت الفحص والتحليل البعيدين عن الاهواء والتعامل حتى تنهار تلك النظريات والتهيم الواحدة بعد الاخرى ، وإذا كان هناك فضل لكريسول فانه يتمثل فيما بذله من جهد لجمع أكثر ما يمكن من تلك النظريات والأراء ثم اضاف إليها من عنده ما قصد به أن يعززها ويدعمها وبذلك اتاح لنا الفرصة لاستعراض أخطرها وأشدّها قسوة ، ثم لتفنيدها وتوضيح الأخطاء التي تردى فيها أصحابها .

ولم يكتف كريسول بذلك بل تمادى في منهج دراساته للعمارة الإسلامية إلى أن يخصص مكانا عند وصف الأثر المعماري وشرح مميزاته يقارن فيه وحدات وعناصر منه بأشياء لها تحمل ولو شبة من التقارب بينها ، وتوجد في طرز سابقة أو معاصرة ويعدّها مصادر اشتقاق وأصول لها ، حتى ولو لم تكن هناك صلة بينهما في الزمان أو المكان وفي أغلب الأحيان تبدو محاولاته هذه مبتذلة وعلى غير أساس سليم ، مما يجعل القاريء يخرج منها

بأن الأثر المعماري منها أما أن يكون أكثره قد أخرجته اليد غير عربية وغير إسلامية أو أنه سار على تقاليد لا يعرفها العرب والمسلمون الأوائل . وتتراكم عوامل الإيهام مع تعدد الأمثلة حتى ينتهي القارئ إلى الوقوع في شرك هذا الإيهام ويصبح أسيرا للخيوطة التي نسجها من حوله ذلك المنهج من الدراسة .

وتتجلى خطورة الأراء والنشائج التي انتهى إليها كريسول في أنها صارت قدوة ونهجا يسير عليها المفرضون كما يتبعه الناصر من العرب والمسلمين الذين حاولوا الكتابة عن العمارة الإسلامية وهم مغمضو الأعين عن الأهداف غير العلمية التي يرمي إليها ذلك النهج ، وشيد على تلك القدوة وذلك النهج المفرضون من الباحثين في تلك الميادين من الغربيين وغيرهم أحكاما ونظريات واهية أحيانا ومقتعلة أحيانا أخرى ، أساءوا بها إلى العرب والمسلمين ، كان منهم على سبيل المثال بعض ممن تخصصوا في العمارة الإسلامية في فارس بوجه عام وفي فنونها وعمارتها بوجه خاص ، مثل اريك شرودر Eric Schroeder وأرثر أوفام بوب Arthur Upham pope ودونالد ويلبر Donald Wilber وغيرهم .

فلقد حرص هؤلاء الباحثون كل الحرص على أن يربطوا قيام الفنون والعمارة في فارس في العصر الإسلامي بأصول ساسانية على اعتبار حقيقة لا تقبل المناقشة في رأيهم وهي أن الساسانيين كانوا فرسا ، وأن دولتهم بناء على ذلك كانت فارسية . وعلى هذا الافتراض أو الزعم جعلوا المؤلف الكبير المعروف بموسوعة الفن الفارسي (٢١)

A Survey of Persian Art, Vol. I-XIV

الذي يغطي جميع العصور من قبل التاريخ حتى أواخر العصر الإسلامي ، جعلوه يشمل أيضا العصر الساساني باعتباره فنا فارسيا ، وهم بذلك أغمضوا أعينهم ، أو أغمضوا على الأقل ، نقطتين حضاريّتين هامتين هما :

الاولى : أن اسم فارس لم يبدأ في الظهور بين أسماء الدول ذات الحضارات إلا مع تكوين الدولة الاخاميشية في حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد .



الجامع الأزهر

ونجح الفرس في أن يمزجوا كل ما اقتبسوه من هنا وهناك في ذوق أخاميني لاشك فيه ، ويتضح بجلام في الأثار القليلة أو التسادرة الباقية من حضارة تلك الدولة الاخامينية ، منها خرائب قصور الابطاطرة التي شيدت فوق احدى الهضاب في موقع عاصمة الاخامينيين المعروفة باسم برسبوليس ، وهو اسم متأثر باللغة الاغريقية ، وتقع على بعد نحو ٦٠ كيلو مترا من مدينة شيراز الاسلامية .

والى جانب التأثير الاغريقي على اسم المدينة فان اختيار تلك الهضبة لبناء قصور الابطاطرة الاخامينيين يردد فكرة اختيار هضبة الاكروبوليس في اثينا لاقامة اشهر معابد الاغريق وبوابتها المعروفة باسم Propylaea التي يصعد من خلالها الى سطح الهضبة ، والتي عملت بوابة شبيهة بها في الهضبة الاخامينية .

كذلك يتضح تأثير العمارة الاغريقية في استعمال الاعمدة الرشيقة في قاعات العروش والقصور فوق هضبة برسبوليس ، وهي الاعمدة ذات القواعد على هيئة ناقوس مقلوب وذات التيجان الاخامينية المبتكرة والتي تجلج كلا منها رأسا ثوريين متدابرين .

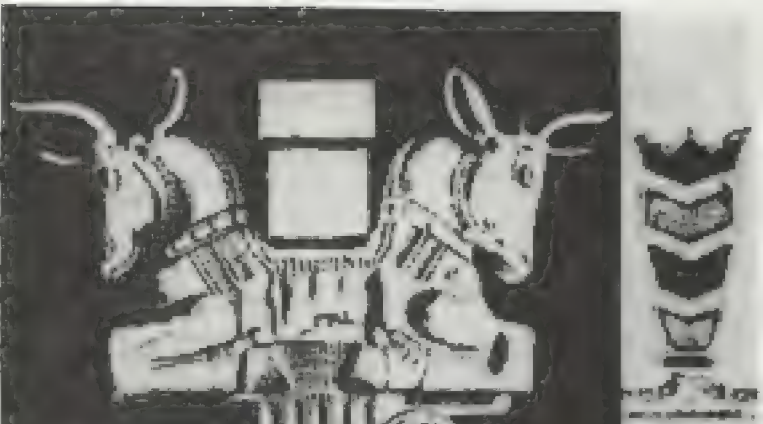
ثم يتجلج التأثير الاشوري في البوابات الضخمة لقاعات العروش والتي يحف بكل باب منها كتلة على كل جانب يلتصق بها نحت بارز Low Relief لحيوان ذي جسم ثور ورأس لأحد اباطرة الاخامينيين ونفس الفكرة وجدت في اثار الاشوريين ، كما يتضح التأثير الاشوري في الشراطات المستنة Serrated cresting والصور البارزة النحت لمواكب اشخاص متتابعين ، وفي صور الصراع بين المنك والوحوش الضارية ، بل وفي أسلوب النحت الخفيف البروز السائد في جميع تلك الصور المنحوتة على الحجر .

ويشاهد التأثير المصري القديم في الطنفس الفرعوني Egyptian Gorge الذي يتوج الابواب في قصور الاخامينيين ، وكذلك في الاطار المريض Architrave الذي يحيط بتلك الابواب .



السوق - طابع معماري خاص تمتاز به الاسواق غالباً في المدن الاسلامية

وما كادت الدولة ترسخ اقدامها وتستقر امورها حتى القت بأبعارها نحو البلاد ذات الحضارات العريقة في غرب فارس . . . وبدأت ببلاد ما بين النهرين التي ترجع حضاراتها الى آلاف السنين قبل ظهور الاخمينيين واستولى هؤلاء على العراق واغترفوا الكثير من أسس حضاراتها وتقاليدها المعمارية وتغاسيلها وعناصرها التي تبلورت في العصر الاشوري القديم ثم القريب من العصر الاخاميني ، ثم ضموا اليها تقاليد وعناصر من الحيثيين في اسيا الصغرى والشام ومن مصر الفرعونية التي اخضعها قمبر فترة من الزمن ، هذا الى جانب ما تأثروا به من تقاليد وأساليب الاغريق الذين دخلوا معهم في سلسلة من الممارك الضارية في البر والبحر ، وانتهت بهزيمة الفرس .



كما تثبت التأثير الفرعوني في فكرة نقش الجبل الصخري في المكان المعروف بنقش رستم . وذلك لتكون بمثابة قبور للباطرة الاخامينيين ، اما قبر دارا أو داريوش Darius والذي يوجد على بعد نحو ١٠٠ كيلو متر من برسبوليس فقد شيد بالحجر ، وكذلك معبد النار بجوار القبور المنحوتة في الصخر في نقش رستم .

وكذلك هناك نقطتان جديرتان بالذكر ونحن بصدد شرح الاسول التي اشتمت منها العمارة الاخامينية بعض مميزاتا وخصائصها . وتتصلان بأساليب وطرق البناء : اولاهما أن البقايا المعمارية من العصر الاخاميني قد شيدت بمسادة الحجر أو الرخام مثل العمارة الاغريقية . وثانيتهما أن استعمال الاعمدة الرشيقة لعمل السقف يدل على أن طريقة التغطية كانت بالخشب كما أن اعتاب الفتحات كانت مستقيمة أو ما يطلق الاصطلاح المعماري Trebeated مثل العمارة الاغريقية ، ولم تكن تلك الاعمدة تقوى على تحمل بناء اقبية أو قباب مثل العمارة الاشورية والبابلية في بلاد ما بين النهرين ، والتي كانت تبنى فيها باللبن أو الحجر ، وهو الاسلوب المعقود Arcuated أي الذي تغطي فيه الفتحات والاسقف بأسطح منعنية مثل المعقود والاقبية والقباب ، وهي عناصر لم تعرفها فارس في العصر الاخاميني ، ولم تظهر في عمارتها الا في أيام الدولة الساسانية العراقية والتي كانت قاصدة حكمها مدينة المدائن في العراق .

وانتهت الدولة الاخامينية بعد ازدهارها فترة ٢٢٠ سنة فحسب (٥٣٩ - ٣٣١ ق م) وقضى عليها الاسكندر المقدوني واستولى على جميع املاكها .

ثم اتبع الاسكندر نظاما خاصا في حكم تلك البلاد إذ قسمها الى مناطق وبلاد جعل على رأسها أحد قواده ، فأسس سلوق الدولة السلوقية (٣١٢ - ٢٤٧ ق م) ، وشمل حكمها العراق وفارس ، ولكنه اختار العراق ليقم عليها عاصمة دولته ولم يتجه الى فارس كما كان الحال أيام الدولة الاخامينية ، وقامت سلوقيا العاصمة بالقرب من بابل القديمة ، وظلت مزدهرة حتى انتزع

البارثيون الحكم واتخذوا مدينة العصر عاصمة لهم على بعد نحو ١٠٠ كيلو متر من مدينة الموصل الحالية .

أو بمعنى آخر أن العراق قد ظل مركز حكم القطرين منذ القضاء على الاخامينيين الفرس وحتى نهاية الدولة الساسانية التي قضى عليها العسرب المسلمون ، أي من سنة ٣٣١ ق م الى سنة ٦٤١ م إذ كان الساسانيون قد اتخذوا كما سبق القول (المدائن) عاصمة لهم على أرض العراق أيضا ، والتي تشاهد آثارها على بعد نحو ٢٥ كيلو مترا الى الجنوب من بغداد على نهر دجلة .

اما خصائص العمارة في العصر السلوقي فكانت تقوم على التقاليد الهلينستية أي الاغريقية المطعمة ببعض التقاليد الاشورية القديمة التي كانت يبقاها ما تزال قائمة على أرض العراق ، ثم استمر الحال كذلك في العمارة البارثية مع التطور الذي كان يجب أن يحدث مع مرور الزمن والذي يبدو واضحا في آثار مدينة العصر Hatra والتي تهتم الحكومة العراقية بتعميرها وتجديدها .

والخيرا تبلورت خصائص العمارة في العصر الساساني وعاد اليها الذوق والطابع العراقي الصريح ، وبخاصة في بناء الاقبية والقباب والمعقود التي عرفها الاشوريون منذ آلاف السنين ، وكما يتضح من نقش بارز على بلاطة من مدينة نينوى في جنوب الموصل . ويشاهد في ذلك النقش قباب نصف كروي وقباب نصف بيضية قريبة من الشكل المخروطي (٣٢) Parabolic ونينوى هي العاصمة الاشورية التي أسسها سناشريب الذي تولى الحكم من ٧٠٥ الى ٦٨١ ق م

وبهنا أن نركز الانظار على النتيجة التي يمكن الوصول اليها مما سبق من عرض وهي أن بلاد ما بين النهرين كانت موطن العمارة المعقودة من قبل العصر الساساني بألاف السنين ، وهي نوع من العمارة لم تعرفه فارس في العصر الاخاميني وذلك على الرغم من اقتباس الاخامينيين لكثير من التقاليد والعناصر المعمارية والفنية من الطراز الاشوري والبابلي كما شرحنا فيما سبق من تحليل وجاء فيه أن العمارة الاخامينية قد امتازت بأنها

العمارة الساسانية في مقال نشر في موسوعة فنون العالم Encyclopaedia of World Art اعترف فيه (٢٥) بالتأثير الكبير عليها من العمارة البارثية ذات التقاليد الهلنستية المنطوقة من الاغريقية ، وذلك على الرغم من النزعة التي سيطرت عليه كما سيطرت على غيره وتنتج الى تأكيد الصيغة الفارسية للعمارة الساسانية ، وهو تضارب تردى فيه الجميع بنفي استثناء .

كذلك اعترف كما اعترف غيره بأن كثيرا من الآثار الساسانية سواء كانت في العراق او فارس ينقص الباحثين عنها المعلومات الوافية ، وما زالت الابحاث تدور حولها في دائرة مفرغة ، وما زالت محاولات الكشف عن بقاياها لم توفق الى ما يشفي القليل من حيث عناصرها ومن حيث الأدلة التي تساعد على تأريخ كل منها ، وكان من نتائج هذا النقص أن أصبحت محاولات التأريخ هذه لا ضابط لها ، بل ان اغلبها يدخل في باب الاجتهاد والافتراض والتخمين بل الافتعال أحيانا . واقترب مثل لذلك محاولة تأريخ طاق كسرى في المدائن ، إذ ينسبه العالم الألماني هرتزفيلد Herzfeld الى عمل شاپور الاول الذي تولى الحكم من ٢٤١ الى ٢٧٢ م بينما يفضل غيره نسبة بنائه الى خسرو الاول أو

عمارة المستقيمت Trebeated ولا يوجد فيما بقي من آثارها ما ينسب عن خط منح واحد لعقد أو قبو أو قبة ، وأن فارس لم تعرف العمارة المعقودة Arcuated الا في العصر الساساني وتشاهد في بعض الآثار الباقية من ذلك العصر على أرض فارس تذكر منها : قصر فيروز آباد (ش :) (٢٣) وقصر سرفشان (ش :) (٢٤) وقصر فراشباد . وكلها تقع في الجنوب الغربي من فارس قرب الخليج وعلى بعد قليل من الحدود الفارسية العراقية ، وفي المنطقة المعروفة باسم عربستان في الوقت الحاضر والتي لا يزال أغلب أهلها يتكلم العربية الى جانب الفارسية ، وبالإضافة الى ذلك فإن الخرائب المتناثرة في أنحاء أخرى من فارس وتنسب الى العصر الساساني تقع غالبيتها في المنطقة الغربية منها . ومن منطقة تبلغ مساحتها أربع مائة فارس . كما تقع جهة العراق التي تنتشر فيها كلها الآثار المعمارية من العصر الساساني من شمالها الى جنوبها وقرب وحول جبال زاغروس Zagros بين أراضي ما بين النهرين وفارس .

ومن أشهر الآثار المعمارية في العراق والتي تنسب الى العصر الساساني القصر العظيم المشهور باسم طاق كسرى الذي يمين موضعه المنطقة التي كانت بها المدائن Ctesiphon عاصمة الساسانيين ، والتي يعرف موضعها الآن باسم سلمان باك ويقع على بعد نحو ٢٥ كيلو مترا الى الجنوب من بغداد .

ولم يبق من ذلك القصر الآن الا الطاق أو الايوان الكبير وجناح من الواجهة الرئيسية ، وهو مسقوف بقبب هائل على شكل قطع ناقص Parabola إذ يبلغ اتساع الايوان نحو ٢٥ مترا وعمقه نحو ٤٩ مترا وترتفع قمة القبب الى نحو ٣٧ مترا ، ويبلغ سمك رجل العقد عند الأرض نحو سبعة أمتار ، فلا يباريه في هذه الضخامة أي من الاقبية في العالم كله ولا حتى من أيام الرومان الذين اقتبسوا العمارة المعقودة من بلاد ما بين النهرين .

وفي تلخيص أعداه الباحث أومبرتو سيراتو Umberto SCERRATO اعظم ما كتب عن

مسجد قايتهاي



شروان الذي تولى الحكم من عام ٥٣١ الى ٥٧٩ م (٣٦) ويبلغ اذن الفرق بين التاريخين اكثر من ٣٠٠ عام ويتكرر هذا النهج من التضارب والغموض في جميع محاولات التاريخ للآثار الساسانية الاخرى ، ولا يخرج القارئ للابحاث التي وضعت عنها حتى الان بنتيجة واضحة .

وكل مايمكن الوصول اليه من المعلومات التي لدينا حتى الان أن العمارة الساسانية هي نتاج تزاوج التقاليد العراقية القديمة من العصر البابلي وما قبله بالتقاليد الهلينستية المنبثقة من العمارة الاغريقية والرومانية والتي بداها السلوقيون وطورها البارثيون . وتم ذلك المزج على أرض العراق وامتدت منها الى اراضى فارس المتاخمة للعراق . ومهما يكن من امر فمن الجدير بالتركيز عليه أن التقاليد الهلينستية قد ذابت في التقاليد العراقية القديمة ، ومن ثم فقد تميزت العمارة الساسانية بطابع محلي جديد لايمكن الخطأ فيه .

اما النقطة الهامة الثانية فهي أن الغالبية العظمى من هذه الابحاث ، ان لم تكن كلها ، قد أهمل أصحابها الوجود العربي في منطقة العراق ، مع أن اللخمين من بني المنذر كانوا يقطنون العراق وكان الحكام الساسانيون يعتمدون عليهم في الدفاع عن حدود الدولة ضد غارات الروم أو البيزنطيين .

ولا نجد تفسيراً آخر لاهمال ذكر الوجود العربي في العصر الساساني سوى أنه كان متعمدا لكي لايتطرق الى الازهان احتمال اشتراك العرب في بناء صرح الحضارة الساسانية وعمارتها المنبثقة عنها ، وحتى لاينسب اليهم أي فضل في ذلك بل يؤول كله الى الفرس وإلى الجنس الآري ، وهي نزعة تسود تلك البلاد منذ أكثر من نصف قرن ، وهي نزعة تحجب الكثير من الحقائق العلمية وتدعو العلماء الى الخروج عن الحيطة العلمية الواجبة اما بعدم ذكر تلك الحقائق أو بذكر عكسها .

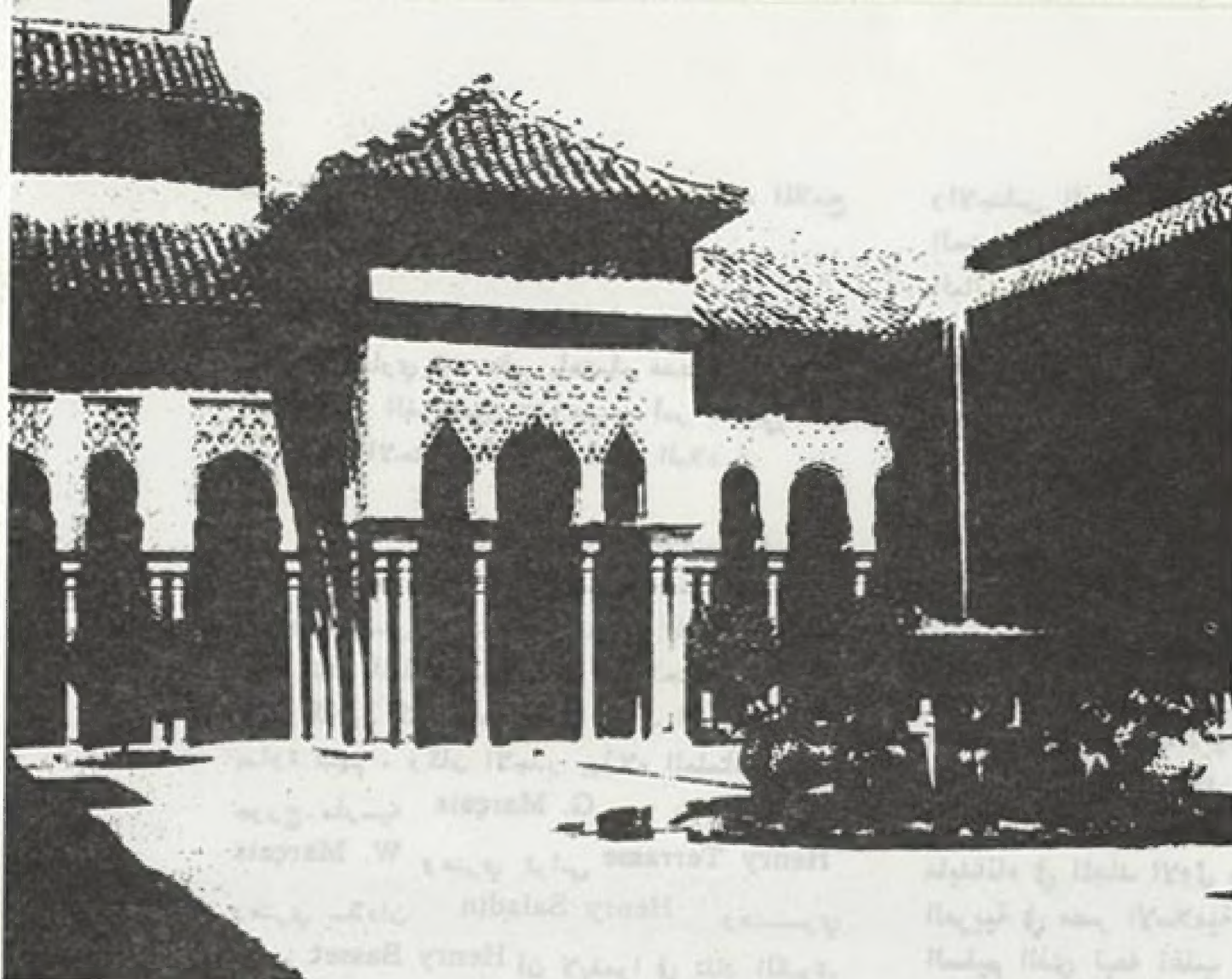
ومن البديهي أن اهمال ذكر الوجود العربي في تلك المناطق في العصر الساساني وما قبله يتبني عليه اختفاء وجوده بعد الفتح الاسلامي

واستيلاء العرب والمسلمين على تلك الاقطار ، ثم اختفاء أثره في بناء الحضارة الاسلامية التي اشترك فيها جميع الاجناس التي آمنت بالاسلام وجاهدت في سبيل نشره في العالم في ذلك الوقت وكان منهم العرب والفرس وغيرهم جنبا الى جنب . وكان من نتيجة اهمال دور العرب في بناء الحضارة والعمارة في العصر الاسلامي أن نسب الفضل الى الجنس الفارسي فحسب أو هكذا كان العلماء المتخصصون يسعون دائما الى تأكيده .

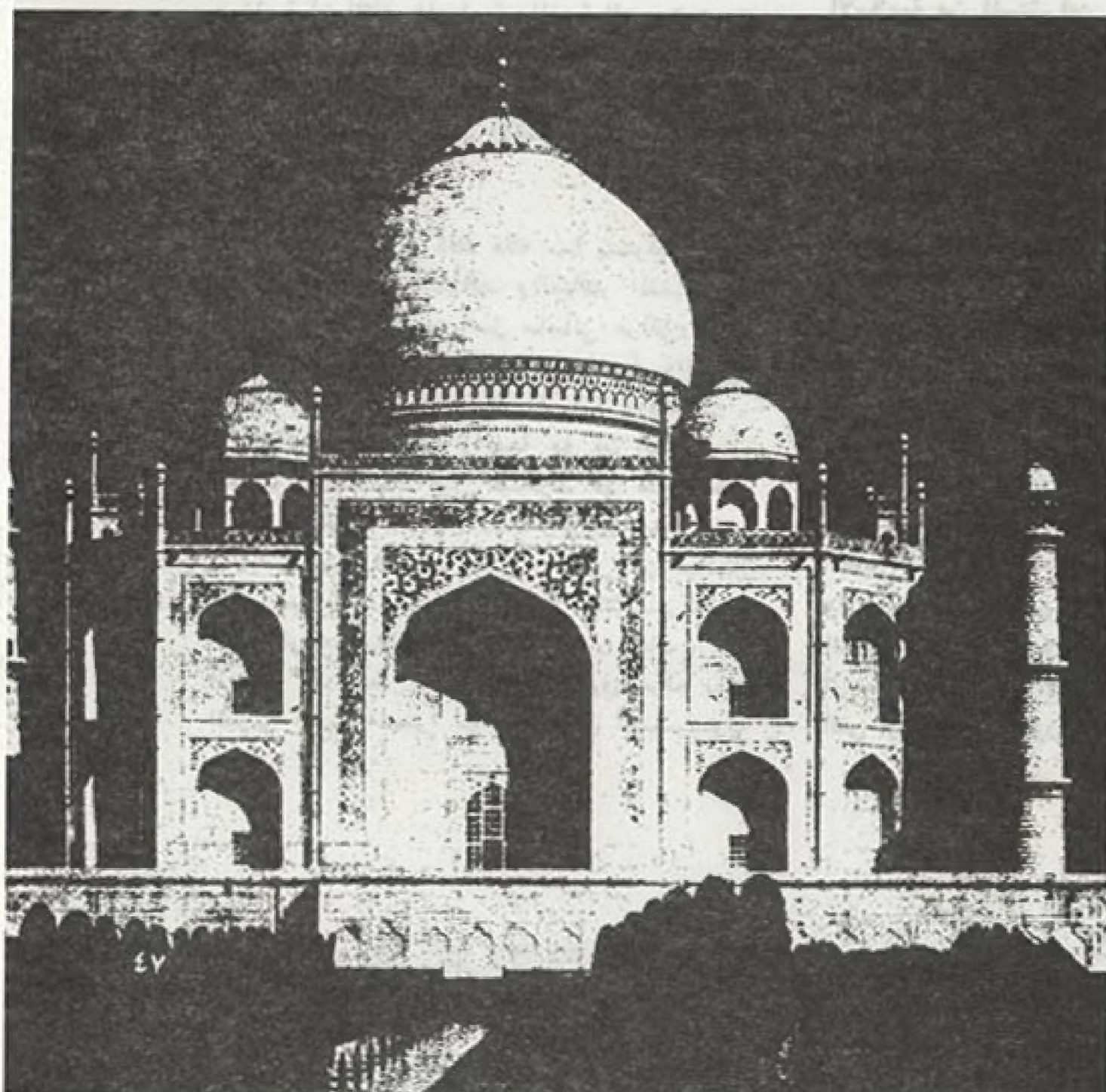
اما اذا اتجهنا نحو الغرب الاسلامي فائنا لانجد الامر يختلف كثيرا عما يدور حول أصول وأسس العمارة في وسط العالم الاسلامي وشرقه .

فلقد خضعت الابحاث والمؤلفات عن العمارة والفنون الغربية الاسلامية لتلك النزعة من التعامل على العرب والمسلمين ، ولكنها لم تبلغ في شدتها مابلغته في وسط العالم الاسلامي وفي شرقه ، بل أنها بدأت تخف منذ فترة وبخاصة في اسبانيا وبعد أن انتهت موجات الحقد والكراهية ضد الوجود العربي على أرض الاندلس التي نتج عنها تحطيم عدد من الآثار الاسلامية والعبث ببعض آخر . ثم أدرك الاسبان القيم العظيمة لذلك التراث الحضاري والمعماري الذي قام على تلك الارض في أيام العرب والمسلمين ، واهتم العلماء الاسبان من المتخصصين في تلك الميادين بتسجيل ودراسة ذلك التراث ، وتتابع الابحاث والمؤلفات عنه ، وكان منها موسوعة الفن الاسباني في عصوره المختلفة ARS HISPANIAE (٣٧) ويضم المجلدان الثالث والرابع التراث العربي الاسلامي منذ فتح الاندلس الى ما بعد نهاية الحكم العربي لتلك البلاد

ومما هو جدير بالذكر أن هذا التراث العربي الاسلامي من عمارة وفنون قد أصبح يكون ركنا هاما من الاركان التي تقوم عليها حركة السياحة في اسبانيا بل أصبح الاسبان يعتزون الان بذلك التراث ويحافظون عليه في حماس كبير ، والاكثر من ذلك أن التقاليد المعمارية التي اختفت في اقطار العالم الاسلامي أو كادت ، قد تمسك الاسبان بكثير منها وبخاصة في عمارتهم السكنية وفي غيرها وذلك على الرغم من موجات واتجاهات العمارة الحديثة



قصر الحمراء



تاج محل

التي انتشرت في العالم الاسلامي واضاعت الملامح العربية الاسلامية من اقطاره .

واذا اتجهنا نحو شمال افريقيا فاننا نجد تراثها المعماري قد حظي باهتمام عدد من الباحثين اكثرهم من الفرنسيين ، وهو امر طبيعي كان يتمشى مع الاحتلال الفرنسي لتلك البلاد .

كذلك كان من الطبيعي ان تشوب أبحاث أولئك العلماء تلك النزعة من التعامل على العرب ومحاولة تلمس أي تأثير من البيئات المحلية وبخاصة سكان تلك المناطق من البربر على اختلاف قبائلهم، كأنهم كانوا أكثر تحضرًا من العرب الفاتحين وأقل بداءة منهم ، وكان الاجدر بهؤلاء العلماء مثل جورج مارسيه G. Marçais ووليم مارسيه W. Marçais وهنري تراس Henry Terrasse وهنري سلادان Henry Saladin وهنري باسيه Henry Basset ان لا يقيموا في تلك الكبرياء، وبخاصة أن الآثار المعمارية والفنية التي بقيت من العصور السابقة على الفتح الاسلامي قليلة بل نادرة في افريقية ، وتونس الحالية ، والمغرب الاوسط ، الجزائر حاليا ، والمغرب الاقصى ، المملكة المغربية حاليا .

وبالاضافة الى ذلك فانه مما يستوقف النظر أنه يوجد عدد من التقاليد والعناصر المعمارية والفنية والزخرفية من أصل ساساني عراقي وأخرى من أصل هلينستي تشاهد في الآثار المعمارية العربية المبكرة التي بقيت في شمال افريقية والاندلس ، الامر الذي يدل دلالة واضحة على أن الجيوش العربية والجماعات التي تضافرت على فتح اقطار شمال افريقيا والاندلس واستقرت فيها بعد الفتح كان من بينهم اصحاب فنون وحرف ومن قبائل عربية من مصر والشام والعراق واشتركوا في ارساء قواعد وتقاليد العمارة والفنون هناك ، كما ارسوها في وسط العالم الاسلامي وفي شرقه مع الفرس الذين اسهموا مع غيرهم من الشعوب

والاجناس العربية وغير العربية في بناء صرح الحضارة والعمارة والفنون الاسلامية في اقطار العالم الاسلامي على مدى المساحة الكبيرة التي ضمت تلك الاقطار ، وعلى مدى القرون الطويلة والمراحل المختلفة التي مرت بها تلك الاقطار وهي ترفع لواء الاسلام واللغة العربية أو الحروف العربية على الاقل .

وعلى الرغم مما يبدو من تطويل لأول وهلة لهذا العرض للابحاث التي أعدت في ميدان اصول العمارة الاسلامية ، فانه لا يقاس بما يجب أن يكون عليه ، اذ هو موضوع يمكن أن يوضع فيه مجلد خاص به بل مجلدات ، وقد حاولنا في هذا العرض أن لانتمادي فيه الى الحد الواجب ، واكتفينا بتلك الملاحظات السريعة المختصرة لنضيف حلقة الى ما بدأناه في المجلد الاول من كتابنا (العمارة العربية في مصر الاسلامية) من كشف المنهج غير السليم الذي تبعه أغلب من كتب عن العمارة الاسلامية من المستشرقين ، كما يكفيننا فخرا أننا كنا أول من ينبه الى ذلك المنهج ويسعدنا ويشجع صدورنا أن يضيف الى ذلك الزملاء من العرب الباحثون والمهتمون بتاريخ العمارة الاسلامية، وبغير أن ينساقوا وراء أقوال أولئك المستشرقين ، أو أن يتعيزوا لجنس أو شعب فيتغالون في اظهار فضل له أو يتعاملوا ضد آخر فيبخسون حقه أو يتفاضوا عن فضل يجب أن يذكر له ، فان الخلاصة التي يوصلنا اليها ذلك العرض توضح بكل جلاء أن المسلمين على اختلاف جنسياتهم وقومياتهم من عرب وفرس وبربر وشاميين وعراقيين ومصريين وغيرهم قد تضافروا ، مثلما تضافروا على نشر الدين الاسلامي ، على اقامة صرح العمارة الاسلامية مقتبسين كما اقتبس غيرهم في جميع العصور من الطرز السابقة والمعاصرة بعض الاساليب والعناصر والتفاصيل بعد تطويرها الى الحد الذي يكسبها الطابع والروح الالهامية التي لا يمكن الغطا فيها الى جانب التقاليد والاساليب والعناصر والتفاصيل التي ابتكرها المسلمون .

- (1) Wüstenfeld (F.): Mecca.
- (2) Hergronje (S.): Mekka.
- (3) Gervais-Courtellament : Mon voyage à la Mecque.
- (4) Prisse D'avenne: L'art arabe.
- (5) Pascql Coste: Architecture arabe ou Monuments du Kaire.
- (6) Bourgoin (J.): Les Arts arabes.
- (7) Lane (Ed. W.): An account of the Manners and Customs of Modern Egyptians.
- (8) Brünnow - Domaszewski: Die Provincia Arabia.
- (9) Jaussen & Savignac: Mission archéologique en Arabie.
- (10) Watzinger & Wulzinger : Damaskus, Die Antike Stadt; Damaskus, Die Islamische Stadt
- (11) Musil (A.) Kusejr 'Amra.
- (12) Amurath to Amurath.
- (13) Archaeologische Reise im Euphrat-und Tigris-Gebiet; 1911.
- (14) Die Ausgrabungen von Samarra; 1911-1927.
- (15) Early Muslim Architecture, Umayyads; 1932, Early Abbassids etc., 1940.
- (16) Muslim Architecture of Egypt, Fatimid; 1952.
- (17) M.A.EG., Ayyubids and Early Mamluks. 1960.
- (18) Palace and Mosque at Ukhaidir, p. vii.
- (19) Taif à la veille de l'héglre, M.é-
lange de l'Université St. Joseph,
Beyrouth, VII, p. 183.
- (20) Moslem Architecture, p. 9.
- (21) Caetani (L.): Annali dell'Islam,
I, pp. 442-444.
- (22) E.M.A., I. p. 4.
- (23) Becker: Die Kanzel in Kult s des
Alten Islam, Orientalische Stu-
dien Theodor Nöldeke, I, pp.
33-51.
- (24) E.M.A. I. pp. 41-94.
- (25) Brunow & Domasewski: Arabia
Petra; Jaussen & Savignac: Mis-
sion Archæologique en Arabie.
- (26) E.M.A., I, pp. 94-96.
- (27) عبد الرحمن فهمي : مجموعة النقود العربية
وعلم النميات ج (١) فجر السكة العربية ص:
٣٢
- (28) المرجع السابق : ص ٣٣
- (29) المرجع السابق ص ٣٤ ، ٣٥
- (30) نفس المرجع السابق ص ٣٤ ، ٣٥
- (31) Rdited by A.U. pope, 1st Ed.
Vols., I-VI, 1939, 2nd Ed. Vols.,
I-XIV, 1965.
- (32) Scerrato, Enc., of World Art,
Vol. XII, Col.
- (33) Serrato, op. cit., Col.
- (33) Scerrato, op. cit., Col.
- (35) Vol. XII, Col. 702-730, Pls. 395-
410, English ed., 1966.
- (36) End. of W. Art, Vol. XII, Col.
- (37) Madrid, 1949.

